الأسرة المصرية

وهل كسبت شيئا بتعلم الفتاة

بقلم الآنسة الأديبة حميدة قطب

هذا العنوان غريب ؛ قد يدهش له البعض ، وقد يعتبرونه سؤالا قاسيا ، ولكن هذا هو الحق مع الأسف ؛ وسببه أن تعليم الفتاة لم يوجه الوجهة الصالحة ؛ ولم تلاحظ مصلحة الأسرة المصرية فى برامجه ، ولم تكن الأمومة الصالحة وجهته .

وعند ما ارتفعت الأصوات تطالب بتعليم المرأة حسب الناس أن مصر ستجنى أطيب الثمرات ، وأنها ستنشئ جيلا جديدا عميق الإحساس بالوطنية ، غيورا على الكرامة القومية وكانوا يرتقبون من الأم المتعلمة أنها ستمحو من الجيل الجديد الفردية والأثرة وسائر الصفات التى غرستها الأمومة الجاهلة فى الأجيال الماضية .

والآن وبعد كذا من السنوات تعلمت فيها المرأة وشاركت الرجل فى الثقافة ، نبحث عن الأم الصالحة وعن الجيل الجديد الذى انتظره الوطن بفارغ الصبر وعلق عليه الآمال العظيمة ، فلا نجد شيئا .

ذلك أن الأم المتعلمة لم تتعلم واجبات الأمومة ولا أصول التربية ؛ ولكنها تعلمت أشياء أخرى لاتحتاج إليها كثيرا فى مملكة البيت ، وبقيت جاهلة بشؤون هذه المملكة كالتى لم تتعلم شيئا .

وكانت المهمة الأولى المنتظرة من الأم المتعلمة أن تغرس فى نفوس أبنائها من معانى الوطنية والقومية ما عجزت عنه الأم الجاهلة التى كانت معذورة فى عجزها ، فماذا صنعت الأم المثقفة ؟ لقد تعلمت لتحتقر وطنها وتهزأ بكل ما هو مصرى ! إن كلمة مصر وكلمة الوطن لا تذكرهما إلا فى معرض السخرية والتهكم ؛ وهى لاتشترى لوازمها إلا من المصنوعات الأجنبية والمحال الاجنبية ، فخورة بذلك أمام صديقاتها وأطفالها ، بينما تحط من قدر المصنوعات المصرية لتغرس فى نفوسهم احتقارها .

وهى تباهى دائما بأنها تعرف لغة أجنبية وتتحدث بها فى كثير من الأحيان وتهزأ باللغة العربية لأنها لغة «ناشفة» ولا تتكلم بها إلا اذا دست فيها بعض كلمات من اللغة «الناعمة» .

لم تكن الأم الجاهلة تعلم أبناءها التضحية لأنها لم تكن تعرفها ولا تفهم معناها ، وقد عرفتها الأم المتعلمة ، ولكنها لم تعن بغرسها فى نفوس أطفالها ، بل هى بحديثها وتصرفاتها تعلمهم كل يوم أن يأخذوا كل شيء ولا يعطوا شيئا .

سألت صبية لها أم متعلمة تعليما كاملا : أتحبين مصر ؟ قالت : لا ! أنا أحب حلوان . ولما أفهمتها بعد جهد أن مصر ليست القاهرة بل هى المملكة المصرية كلها ، أجابت ببرود وهى تهز كتفيها : أحبها ! وكانت ممسكة بلعبة فقلت لها : من أين اشتريت هذه اللعبة ؟ فذكرت لى اسم محل أجنبى . فسألتها : لماذا لم تشتريها من شركة بيع المصنوعات ؟ فقالت : ما ما تقول المحلات الأفرنجية أحسن ، فداعبتها قائلة : إذا كانت مصر تحتاج إلى هذه اللعبة فهل ترضين بإعطائها لها " فكان جوابها " ياسلام . ليه يعنى أديها لها . وأنا مشترياها بفلوس كتيرة " ؟

وهذه الصبية نموذج للجيل الجديد الذى تنشئه الأمهات المتعلمات .

أما التربية الخلقية فلست أبلغ إذا قلت إن الأم الجاهلة كانت فيها خيرا من الأم المتعلمة . فالأولى كانت غالبا محافظة على دينها وتقاليدها ، وكانت تلقن أبناءها هذه المحافظة بالقدوة على الأقل ، أما الأم الجديدة فقد نبذت كل ذلك ، ثم لم تأخذ من التقاليد الغربية إلا قشورها ومظاهرها الفاسدة ، وهى تربى أبناءها على مبادئ هذه المدنية كما فهمتها فينشأون مستهترين . المدنية عندهم هى ملابس وزينة وحفلات وارتياد للسينما والملاهى .

لم تكن الأم الجاهلة تهتم بالإشراف الدقيق على الأطفال فى حركاتهم وألعابهم ، لأنها لم تعرف أن أخلاق الطفل تتكون فى سنواته الأولى ولم تعرف أن اللعب أكبر مدرسة لتكوين خلق الأطفال . ولقد علموا الفتاة لتتدارك هذا النقص ، ولكن تعليمها الحاضر لم يجد شيئا ، فهاهم أطفالها مهملون فى حركاتهم وألعابهم ، وهى مشغولة عنهم بشؤونها الخاصة ، بمواعيدها وزياراتها ، " ببروفات فساتينها " بتتبع "آخر الأزياء" والمودات " بتجربة أنواع " التواليت " وطرقه ... أما أطفالها ففى يد الخدم إن كانت الأم من طبقة غنية ، أو مع زملائهم وزميلاتهم يلعبون فى الطرقات بلا رقيب إن لم تكن من ذوات الخدم والحشم يتعلمون فى هذه الألعاب كل ما يطبعهم على الغش والخداع والحلف الكاذب لأتفه الأسباب .

شاهدت مرة طفلتين تلعبان لعبة " القولة " (الخطوط المتقاطعة وقطعة الحجر تنقل بالقدم) فى غفلة عن أمهما وكانت كبراهما تحاول الغش فى اللعب لتنتصر على الصغرى ، بالتزوير فى الخطوط وبإخفاء الأخطاء ، فهل تدرك الأم مدى جناية لعب كهذا على مستقبل فتاتها يوم تستخدم هذا الغش فى حياتها اليومية ؟

الأم المصرية جاهلة أو متعلمة لا تفكر فى أن بين يديها أمانة لوطنها الذى أنشأها ولدى تدين له بكل شىء — أمانة يجب أن تؤديها له على أكمل وجه . والذنب فى هذا ليس ذنبها ولكنه ذنب الجهل حين كانت جاهلة ، وذنب التعليم الحاضر حين أصبحت متعلمة ، ذلك التعليم الذى يبعدها كل البعد عن طبيعتها وعن إعدادها لوظيفتها فى الحياة

حميدة قطب